دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	مدرسة السلطان قايتباي في المسجد الحرام
المصدر:	العرب
الناشر:	دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر
المؤلف الرئيسي:	اسماعيل، اسماعيل أحمد
المجلد/العدد:	مج14, ع1,2
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1979
الشهر:	يوليو - شعبان
الصفحات:	82 - 95
رقم MD:	133016
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	المؤسسات التعليمية ، المسجد الحرام ، مكة المكرمة ، دولة المماليك ، قايتباي المحمودي الظاهري ، سلطان المماليك ، التصميم المعماري ، النقوش ، الزخرفة الإسلامية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/133016

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

مدرسة السلطان قايتباى في المسجد الحرام

قال الله تعالى : (رب اجعل هذا البلد آمنا) وقال جل وعلا : (وضَرَبَ الله مثلاً قريةً كانت آمِنَةً مُطْمئِنَّةً) وتعني الآية مكة شرفها الله . وقال أيضاً عز وجل مخاطبا رسوله صلوات الله عليه وسلامه : (إنما أُمِرْتُ انْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّتِي حَرَّمِها) والمعنى تعظيم مكة لكونها موطن ولادته ونشأته ومهبط وَحْيِهِ ، فهي حرم آمِنٌ لا يُسْفَكُ فيها دَمٌ ولا يظلم بها أَحَدٌ .

وعن الزهري عن صالح بن كيسان عن بن شهاب عن بن عدى بن الحمراء أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على راحلته بالْحَزْوَرَةِ بِمَكَّةَ يقول : « والله إنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ الله ، وأَحَبُّ أَرْضِ الله إليَّ ، ولولا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ ما خَرَجْتُ » .

ويستدل على عظمة مكة وتشريفها عند العلماء ما نزل فيها من آيات واختار الله منها أكرم انبيائه ، وجعل بها بيته المعظم بما فيه من المواضع المباركة كالكعبة المعظمة ، ومقام إبراهيم وبئر زمزم ، فالصلاة بالمسجد الحرام مضاعفة في حديث ابن الزبير رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلاة في مسجدي هذا أفضل من الصلاة فيما سواه من المساجد الاالمسجد الحرام ، وصلاة في المسجد الحرام أفضل مائة ألف صلاة في مسجدي » رواه أحمد وبن عبد البر .

ومن هنا كان تسابق المسلمين حكاماً وامراء وأفرادا لشرف المساهمة في عمل

المنشآت الدينية والمدنية بمكة المكرمة والمسجد الحرام لنيل شرف هذا العمل الجليل ابتغاء مرضاة الله وتقربا إليه وتسهيل الحج لضيوف الرحمن .

التعريف بصاحب الاثر :

قايتباى هو الملك الأشرف أبو النصر قايتباي المحمودي الظاهري يُعَدُّ الملك الثامن من ملوك الجراكسة ، والسادس عشر من سلاطين المماليك البحرية والجراكسة

ولد ببلاد الجركس في بضع وعشرين وثمانمائة تقريباً[1] . . خلف الملك الظاهر أبا سعيد (تُمُرْبُغَا) الظاهري في ٦ رجب سنة ٨٧٣ هـ . نسب أولا للخواجا محمود الذي جلبه إلى مصر ثم اشتراه برسباي وأعتقه الظاهر جُقْمُق ونسب إليه . تقلد قايتباي عدة وظائف منها أمير مئة مقدم ألف زمن خوشقدم فرأس نوبة النوب في دولة بلباي ، فأتابكا في دولة تمربغا ثم تسلطن بعد خلعه بعد ما أظهر تَمَنُّعاً في قبول السلطنة أول الامر . . . ودام في السلطنة ما يقارب ثلاثين عاما إذا توفي في آخر ذى القعدة سنة ٩٠١هـ .

وصفه السمهوديُّ بقوله [2] « هو ملك مطاوع محظوظ ، صبور غير عجل ، كثير الحياء والوقار والمهابة ، إذا حاول أمْراً لا يتسَّرع فيه بل يتأنَّى كثيراً ، ويعظم أهل العلم ويجلهم » .

ووصفه قطب الدين الحنفي[3] بقوله : (أنه احسن ملوك الجراكسة عقلا ودينا وخيرية ، لقد كان ملكا جليلا وسلطانا نبيلا له اليد الطولى في الخيرات ، والطول

---

(١) قطب الدين : « الاعلام باعلام بيت الله الحرام » ص ٣٣٣ وما بعدها .

(٢) « وفاء الوفا باخبار دار المصطفى » ج ٢ ص ٧١٧ . ولقد عاصر السمهودي نزيل طيبة ومؤرخها ، السلطان قايتباي أثناء زيارته للحرمين الشريفين عام حجه . وناقش معه ومع أمامه الشيخ الكركي أمورا كثيرا استجاب لها السلطان وتتعلق باصلاحات في الحرم النبوي الشريف وتوزيع الخيرات على فقراء المدينة المنورة . وتوفي السمهودي عام ٩١١ هـ .

(٣) المرجع السابق .

الطائل في اسداء المبرات ، بني بالمساجد الثلاثة عدة ربط ومدارس وجوامع عظيمة الاثار باهرة الأنوار ، وله بمصر والشام وغزة آثار جليلة وخيرات جميلة) .

أما ابن إياس[1] فيصفه بقوله : (إنه كان وافر العقل سديد الرأي عارف بأحوال المملكة يضع الأشياء في محلّها ، موصوفا بالشجاعة عارف بأنواع الفروسية) .

ودفن قايتباي بمدفنه في الصحراء الشرقية من القاهرة ، ويُعَدُّ من أبرز أهم آثار المماليك الجراكسه بمصر ، ويتألف من سبيل ومكتب وقبة . ويتصف بجمال العمارة ورشاقة المئذنة والقبة ، وحسن زخارفها ، بخلاف تنوع رسوم رخام الأرضيه والسقف وخلف قايتباي ولده الناصر أبا السعادات . لكنه على خلاف أبيه ، فكان ماجناً سفيها ، تَألَّبَ عليه عسكر أبيه وقتلوه قرب الجيزة في سنة ٩٠٤هـ ، ودفن بتربة أبيه .

منشآت قايتباي المعمارية بالحرمين الشريفين :

اتصف السلطان قايتباي بفعل الخير ، فتعددت آثاره العمرانية الدينية المشيدة في مصر والشام وفلسطين والحجاز . فشيد المساجد والرُّبُط والمدارس . . وحين تسلطن أرسل إلى مكه بالمراسيم التي تبطل المظالم ، وأمر بأن تنقَر على أساطين المسجد الحرام .

ومن أهم منشاته الخيرية :

١ ــ عمارة مسجد الخَيْف ، بعد أن تهدم بأكمله ، فاعتبر مُشَيِّداً من جديد وأنشأ عند بابه المنارة والسبيل ، وأمَرَ بإجراء المعلوم لمؤذن المنارة ، ومن يؤم المصلين بالمسجد . وجعل قبة تتوسط هذا المسجد ، وهي حد مسجد رسول الله صلى

---

(١) « بدائع الزهور في وقائع الدهور » . ج ٣ ص ٣٢٢ ، طبعة جمعية المستشرقين الألمانية ، تحقيق د . محمد مصطفى .

الله عليه وسلم في خيف منى ، وجعل في رواق القبلة أربع بوائك ، ومحراب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تحت القبة المرتفعة ومئذنة من ثلاثة طوابق ملاصقة للقبة ، بخلاف المئذنة التي على عقد باب المسجد .

كما جعل للمسجد باباً ثانياً جهة عرفة ، وخوخة صغيرة للجبل الذي في في سفحه غار المرسلات[1] . وقد الحق بالمسجد دوراً لسكن امراء الحج والسبيل الذي يمتلىء بمـــاء المطر ، واقيم بصحن المسجد .

٢ ــ تعمير مسجد نَمِرَة بعرفة ، وهو الذي يجمع فيه الامام بين الظهر والعصر جمع تقديم يوم عرفة للحجاج المحرمين ، ولقد أحدث الظل بهذا المسجد الذي ينسب لابراهيم الخليل ــ بعد ما قاسى الحجيج من لفحات الشمس بأن زاد فيه رُوَاقَيْنِ ليستظلّ بهما الحجيج .

٣ ــ بيض مسجد المزدلفة على جبل قُزَح بالمشعر الحرام ، وعند الحنفية لا يتم جمع التقديم إلا في مسجد عرفة ولا جمع التأخير إلا في هذا المسجد بالمزدلفة بين المغرب والعشاء .

٤ ــ أجرى عين خُلَيْص بعد انقطاعها مرة بعد أُخرى ، والتي تُعَدُّ من أحسن مناهل طريق الحج وأعذبها[2] ، كما أمر بركة الروحا .

٥ ــ أجرا عين عرفة بل بدأ التجديد والحفر من سفح جبل الرحمة حتى وادي النعمان بعد ما (محى اسمها وتعطل رسمها وعفا أثرها) ، وظل ماؤها منقطعا زهاء قرن ونصف من الزمان اندرست فيها علاماتها واماراتها وبركها ومجاريها حتى افاضت أنهارها وأوصلها إلى مسجد نَمِرة ، وأنشأبها صهريجا يتجمع فيه الماء

---

(١) هو الجبل الذي على سفحه نزلت سورة (المرسلات) على الرسول عليه الصلاة والسلام .

(٢) السمهودي ــ المرجع السابق جـ ٢ ص ٧١٦ ومابعدها .

فاذهب عن الحجيج الظمأ ، ويقول السمهودي :[1] : (وقد كنت أرى الفقراء في كل سنة في ذلك اليوم لا يسألون غالبا إلا عن الماء وكان أُعزَّ الاشياء هناك فلم يبق له طالب ولله الحمد ، سقاه الله بذلك من حوض الكوثر) .

٦ ــ جَدَّدَ حدود عرفة والعلمين الموضوعين لحدهما .

٧ ــ في سنة ٨٧٩ هـ وصل مِنبَرٌ خشبي للمسجد الحرام فركب جهة باب السلام ، وجُرَّ إلى المطاف ، وخطب عليه في أول ذي الحجة من سنة ٨٨١هـ .

٨ ــ أصلح خشب سقف المسجد الحرام بالرواق الشرقي واثبت ذلك بالخط النسخي المملوكي مما جاء فيه (. . . . . وجعلها على أجمل صورة بعد ما ابلاها الجديدان ، وأكلت عيدان سقفها الأكلة والديدان ، فرفع القباب . . . . .)[2] .

٩ ــ غير رخام الحِجْر الشريف من الداخل والخارج ، ورصعت الشقوق بين الاحجار في المطاف ، كما رخَّم داخل البيت الشريف .

١٠ ــ ونحن بصدد منشآت قايتباي بمكة المكرمة لانغفل عمارته الكبيرة للمسجد النبوي الشريف بعد حريقه عام ٨٨٦ هـ . وما أوقفه من تحف وهدايا على الحجرة النبوية الشريفة . بعض تلك الآثار باق إلى يومنا هذا يحكي عظمة قايتباي وبعضها اندثر ولم يبق إلا بعض معالمه .

١١ ــ ومن أجمل أعماله الخيرية تلك المدرسة وما الحق بها من سبيل ورباط والتي أقامها نافذ على شارع المَسْعَى في الجانب الشرقي للحرم المكي الشريف .

---

(١) نقشت عمارة هذه العين على حجرين من (البازلت) يحملان نصاً واحداً وإن اختلف شكل كل منهما عن الاخر ، كان الأول باعلا جبل الرحمة نشر كتاباته صاحب مرآة الحرمين ــ ابراهيم باشا رفعت . والثاني بخط نسخي من ثمانية عشرة سطرا مؤرخ رجب سنة ٨٧٥هـ ومحفوظ بقاعة الكتابات التاريخية بكلية الشريعة والدراسات الاسلامية بمكة المكرمه ــ والعبارة المذكورة بين القوسين وردت فيه .

(٢) المرجع السابق ص ٧١٧ .

مدرسة قايتباي بالمسجد الحرام :

بدأ قايتباي اصلاحاته المعمارية للحرم المكي الشريف ـ كما أوجزت ـ بتركيب منبر خشبي جهة باب السلام في ذي الحجة سنة ٨٧٩هـ . بعده بعامين جدد سقف الرواق الشرقي .

وفي عام ٨٨٣هـ أمر السلطان قايتباي وكيله وتاجره الخواجا شمس الدين بن عمر المعروف بابن الزمن[١] ، وكذلك الأمير سنقر الجمالي الأشرفي ، بتجديد موضع يشرف على الحرم الشريف ليبني فيه مدرسة يدرس فيها علماء المذاهب الأربعة . ورباطا للفقراء ، وأوقف قايتباي ربعات للصرف على المدرسين والقراء (تقرأ ربعة كل يوم بحضور القضاة الأربعة والمتصوفون) . وكانت لهم وظائف مقررة ومكتب للايتام ، مكان رباطي السدرة والمراغي المتصلين بعد شراء قايتباي الدار الملاصقة لرباط المراغي[٢] والمملوكة للشريفة شمسية من أشراف بني حسن .

وقام بهدم كل ذلك وجعل منها ٧٢ خلوة ومجمعا يشرف على المسجد والمسعى . وصار المجمع مدرسة ملحق بها مكتب ومئذنة صنعت بالرخام الملون والسقف المذهب .

وعلى يمين خان البزازين بالمسعى شيد قايتباي سبيلاً (قبل عام ٨٨٤هـ ـ ١٤٧٩م) . أما المدرسة فقد قرر لها :

ـ أربعه مدرسين (كل مدرس وفق مذهب) .

---

(١) ذكرة عبد القادر الأنصاري الجزيري في درر الفوائد المنظمة ، في اخبار الحج ، وطريق مكه المعظمة باسم الخواجه شمس الدين محمد بن الزبن ، وفي نسخة الازهريه باسم بن « الزبير » . أنظر بالمرجع السابعة ص ٣٤٠ والحاشيه ، المطبعة السلفية ومكتبتها . القاهرة ١٣٨٤هـ .

(٢) هذا الرباط كان قد أوقفه على الواصلين إلى مكه المقيمين والمجتازين من العرب والعجم قاضي القضاه أبو بكر محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم المراغي مرتضى أمير المؤمنين سنة ٥٧٥هـ واثبت ذلك على لوح من خمس (أنظر الفاسي في شفاء الغرام ج ١ ص ٣٣٠) واللوح محفوظ بمتحف الحرم المكي الشريف .

– أربعون طالباً .

وأوقف على الطلبة خزانة كتب عين لها خازنا قرر له مرتبا ، ووضعت في المدرسة .

وذكر القطبي [1] في « الاعلام » أن ايدى المستعيرين استولت على خزانة الكتب وضيعوا أكثرها ولم يبق بها سوى ثلاثمائة مجلد ، ونسب لنفسه صيانتها وإكمال ما فات منها ، وتجليد ما احتاج إلى التجليد ، وأعاد للوقف عليها ما كان بها . وجعل الواقف في هذا المجمع (المدرسة) للقضاء الأربعة حضورا بعد صلاة العصر بحضور بعض الفقهاء يقراون له ٣٠ جزءاً من القرآن الكريم . كما قرر في المدرست فقيها يعلم ٤٠ صبيا يتيما رتب لهم وقرر اهل الخلاوى الحرايات بما يكفيهم على مدار العام من القمح بخلاف مبالغ سنوية من الذهب للمدرسين والمؤذنين وقراء الاجزاء .

وذكر القطبي أن قايتباي قد شيد عدة رباع تغل سنويا نحو الفى ذهب ، أوقف عليها بمصر قرى وضياعا عديدة . وحبوبا تحمل إلى مكة سنويا . . .

ويتهم الشيخ حسين باسلامة خديويّ مصر محمد على بادخال تلك الاوقاف إلى ماليته[1] . وذكر القطبي أيضاً أن معظم منشات قايتباي باقٍ اثرها إلا أن بنايتها قد ضعفت بفعل الأكله والديدان فتخربت وصارت المدرسة مسكنا أمراء الحج وقت الموسم ، وللامراء في غير الموسم .

وتم الفراغ من بناء المدرسة وملحقاتها – وهي رباط ، وبيتين – أحدهما جهة باب السلام[3] والآخر جهة باب الحريريين (سنة ٨٨٤هـ ، على يد الأمير سنقر

---

(١) المرجع السابق .

(٢) حسين عبد الله باسلامه – « تاريخ عمارة المسجد الحرام » ص ٩٢ .

(٣) يعرف قديماً بباب بني شيبة والآن بباب السلام والجنائز (؟) وهو الباب المجاور لباب قايتباى؟

الجمالي الاشرفي بعدها مباشرة أرسل قايتباي للشريف جمال الدين بن بركات بن عجلان صاحب مكة ، يخبره أنه رآى مناما وتفسيره يقتضي غسل البيت الحرام من الداخل والخارج ، وكذلك المطاف وأمره بعمل ذلك ، ففعل صاحب مكة ، وشاركه رئيس القضاه ابن ظهيرة والأمير سنقر الجمالي ، ونائب جدة ، واعيان مكة ومعهم فاتح البيت عمر بن أبي راجح الشيبي ، ، وغسلوا الكعبة المعظمة قدر قامة ، وبقية البيت والمطاف وطيبوه بالطيب ، وذلك في ذي الحجة سنة ٨٨٤هـ .

وبعد ذلك حج قايتباي في ٨٨٤هـ،وأناب عنه يَشْبُك الدوادار في حكم مصر، وتوجه الركب السلطاني إلى المدينة المنورة أولا ، ورفع قايتباي المكوس عن أهلها وقرر المنح للعلماء والفقراء ، ثم قصد مكه المكرمة حاجا . وذكر القطبي أن السلطان دخل مكة معه شيخ الاسلام بن اظهيره والاعيان ، ودخلوا مكة من اعلاها وقام بن ظهيرة بتطويف السلطان وتلقينه الادعية والتلبية . ووصل السلطان باب السلام البراني ومن الطريف أن طلع قايتباي بفرسه .

فجفل جواده وسقطت عمامته وظل مكشوف الرأس حتى ناولها اياه المهتار رمضان ، فكان ذلك تأديبا من الله للسلطان لضرورة أن يترجل[1] . . ويضيف القطبي أن السلطان دخل محرما مكشوف الرأس وترجل بعد باب السلام وقرىء بين يديه بصوت جهوري من قوله تعالى : (لقد صدق الله ورَسُوله الرؤيا بالحق لتدخلنَّ لتدخلنَّ المسجدَ الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم) الآية .

ودعا السلطان ومن حوله وقبل الحجر الاسود وطاف ، وسعى راكبا وعاد إلى الزاهر وخلع على الجميع ، ومشي في موكب لم يتخلف أحد عنه من الرجال والنساء حتى المخدرات .

---

(١) تلك النادرة نقلها عن القطبي في الاعلام (ص ٣٣٤) كثيرون من مؤرخي مكه كالسباعي . . . في تاريخه وغيره . ونرى أنها تتناقض مع سلوك السلطان وتأدبه ، فالسمهودي وصف السلطان في تجوله في المدينة المنورة والمسجد النبوي الشريف بأنه لم يكن يركب جواده إلا بعد خروجه مترجلا خارج المدينة مع ما وصفه المؤرخون من التدين ، فكيف دخل المسجد الحرام ممتطياً ظهر جواده ؟؟ .

وفي صباح اليوم التالي غادر مخيمه بالزاهر ، ووصل مدرسته وصافح الناس الذين ترجلوا له ، ودخل المدرسة وتصدق ومَدَّله الشريف محمد بن بركات سماطا حافلا جليلا واستمر بالمدرسة حتى طلع مرسى عرفات وافاض مع الناس وأتمّ حجه . ورجع بعد أيام التشريق ، وتوجه الركب المصريّ وتأخر هو بمكة أياما قرر فيها وظائف مدرسته لأهلها من الفئات الآتية .

ـ المدرسين	ـ ناظر المدرسة والوقف
ـ الطلبة	ـ قراء صحيح البخاري وقاريء المصحف وخادم المدرسة .
ـ المؤذنين .	ـ خبازين وسقائين
ـ وعريف	ـ وصيرفي
ـ البوابين	ـ أصحاب الخلاوي
ـ الايتـــام	ـ الوقادين . . . .

وجعل لهؤلاء وقفياً لكل منهم كفايته من قمح ودراهم وزيت وكتب . وحضر قايتباي في ١٣٠٠٠٠٠٠ من ذي الحجة من عام حجه ـ حفل أفتتاح مدرسته ، بحضور رئيس القضاة ، وذلك بطرف الايوان الشرقي ، وتصدره وقرأ مع الجالسين في الربعة الشريفة ، بَعدهُ مدَّ السماط بدور المدرسة وأكل معهم السلطان السكر شرب السوبياء .

وقبل عودة قايتباي إلى مصر شيد سبيلا على يمين الداخل إلى خان البزازين بالمسعى ويسمى « العلقمية » كما أشار عليه ابن الزمن والمهندس بهدم السبيل القديم الّي كان للقاضي شهاب الدين الطبري لتظهر عمارة مدرسته واضحة وصار المسعى مكشوفا وعمارة الخان والسبيل ظاهرين ثم طاف السلطان طواف الوداع في اليوم التالي ، وعاد مصر بعد غيبة ثلاثة شهور في البلاد المقدسة .

العناصر المعمارية للمدرسة :

١ ــ باب المدرسة : موضعه كان يقابل الباب الثاني من أبواب المسجد الحرام في الجهة الشرقية والمسمى بباب قايتباي حتى وقت قريب ، بعد باب السلام (الجنائز) ، وباب النبي ، فتحه قايتباي حين عمر مدرسته على شارع المسعى من الداخل على يسار الداخل إلى المسجد الحرام فهو باب كان نافذا من داخل المسجد على شارع المسعى . وقد أزيل من مكانه حين شق شارع المسعى وازيلت الدور والابنية منه في التوسعة السعودية الاخيرة .

والباب ذو مصراعين يحمل نقوشا كتابية واخرى زخرفية ، يتوسطهما باب حجرى يكتنفه عمودان حجريان هو باب المدرسة .

النقوش الكتابية : كل من المصراعين على جانبي المدخل الرئيسي مقسم إلى مستطيل كبير يتوسط الباب ، اعلاه مستطيل صغير ، راسفله مستطيل أكبر منه ، كتاباته بخط نسخي مملوكي يماثله التقسيم إلى مستطيلات على المصراع الأيسر .

الكتابة تبدأ من على المصراع الايمن تكتمل فيما يماثلها على المستطيلات بالمصراع الايسر كالتالي :

المصراع الايمن للمدخل **المصراع الايسر للمدخل**

ــ المستطيل العلوي : ــ عِزٌّ لمولانا السلطان الملك الاشرف أبو النصر قايتباي أبو النصر قايتباي .

ــ المستطيل الاوسط على ثلاث صفوف داخل جامة كبيره : عز لمولانا السلطان الملك الاشرف كما في المصراع الايمن عِزٌّ نَصَرُهُ .

ــ المستطيل الاسفل : اللهم انصره نصراً عزيزاً وافتح له فتحا مبينا يارب العالمين .

أما الجدار الحجري القائم عليه الباب فيحمل على جانبيه بالخط النسخي البارز نقرا على الحجارة من خارج الباب مبا يلي شارع المسعى كتابة تفصيلها :

ـ **الجانب الأيمن** : . . . . .) لم يَخْشَ إلاَّ الله فعسى أ لئك .

ـ **الجانب الأيسر** : أن يكونوا من المهتدين . أمر بانشاء هذه المدرسة مولانا السلطان الملك المظفر أبو النصر قايتباي .

يعتقد الشيخ حسين عبد الله باسلامه[1] ، أنَّ النص السابق كان جزئاً من كتابة نقشت على جدار الباب الايمن وطمست عمدا ونصها :

(بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله اليوم الآخر وأقام الصلوة وآتي الزكوة ولم يخش إلا الله) الآية . ويستدل بوجود عبارة (ولم يَخْشَ إلا الله) . على وجود الآية من أولها حسبما تقدم .

ونرى أن الطمس العمد الذي رآه الشيخ باسلامه بعيد عن الصحة ، لان الطمس العمد لا يكون فيما انزله الله عز وجل ، وأن حدث طمس يكون في اسم مؤسس البناء أو مباشره .

وهذا لم يتوافر وفقاً لما تقدم من امر قايتباي بانشاء المدرسة ونقر ذلك على الحجارة ، والراجح أن توسعة باب السلام زمن السلطان سليم خان عام ٩٣١ اقتطعت جزءاً من جدار هذا الباب الذي شيده قايتباي لمدرسنه .

وخلاف باسلامه لم يتعرض بالتفصيل لباب مدرسة قايتباي أيٌّ من مؤرخي مكة اللهم إبراهيم باشا رفعت في « مرآة الحرمين » حين اكتفى بوصفه بأنه خوخه ولا سلم له . أما صاحب « الرحلة الحجازية[2] » فذكر أنه في مدة حج قايتباي سنة ٨٨٤ شيد في لصق الحرم من الجهة الشرقية مدرسته .

---

(١) « تاريخ المسجد الحرام » ـ تحقيق عمر عبد الجبار ص ١٧١ .

(٢) محمد لبيب البتنوني ص ٧٥ ، ٧٦ .

النقوش الزخرفية : يكتنف الباب الرئيسي عمودان حجريان ويزخرف الباب من اعلاه عَقْدُ نصف دائري ، يتوسطه شكل مروحه نخيلية وتتكرر أعلى المصراعين المزخرفين بالكتابات المتقدمة وأسفل تلك الطاقية عقد دائري ، يحيطه عقدان مدببان فشريط من ازار لزخارف نباتية ، بالنسبة لطاقية المدخل الرئيسي بينما في طاقية كل مصراع مستطيلات كحطات المقرنص تزخرف طاقية كل منها وأسفلها عقد دائري على شكل حذوة الفرس يحيطه عقدان مدببان .

ويعلو المدخل الرئيسي أشكال جصية على شكل صنجات معشقة عددها ٦ على عتب الباب وواحدة في كل جانب منه في الدخلة التي تعلو العمودين الحجريين .

والكتابة التي تحمل اسم السلطان في ثلاث سطور على المستطيل الأوسط بالمصراعين داخل جامعة مفصصة تحيطها من أركان المستطيل زخارف نباتية بارزة .

وأسفل الباب الرئيسي بمصراعيه ثلاثة مستطيلات على جانبية ، أسفل كل مصراع مستطيلان متماثلان في الحجم لهما أطار من جديلة هندسية الشكل مظفرة بهما أشكال هندسية تكون أطباقا نجمية . في حين أسفل المستطيل الذي يلي الباب الرئيسي نصف عقد دائري عليه لفظ الجلالة بخط نسخى وسط زخارف هندسية .

٢ ــ المنـــارة : الاثر الثاني من عمارة المدرسة والتي ازيلت في العمارة الأخيرة للمسجد الحرام مع بقية المنائر ، وتعد المنارة السادسة من منارات الحرم المكي الشريف بعد منارة أبي جعفر المنصور على باب العمرة ، ثم منارة الخليفة المهدي ، فثلاث منارات أخرى على باب السلام وباب الوداع . فخامسة استحدثت في زيادة دار الندوة للمعتضد العباسي بين باني الزيادة والقطبي .

ثم تجيء المنارة السادسة وهي لقايتباي وهي على جدار مدرسته في الجهة الشرقية شيدت عام ٨٨٠هـ . وتقع بين باني السلام والنبي . . . وكانت المنارة تتميز بقاعدتها المربعة لم يطرأ عليها التغيير أو التبديل ، إلا أنها رممت كثيراً كغيرها من منارات الحرم الشريف .

وذكر ابن ظهيرة القرشي [1] : « في المسجد الحرام الآن ست منارات أربع في الأركان والخامسة في زيادة دار للندوة والسادسة بمدرسة السلطان الاشرف قايتباي رحمه الله المجاورة لباب السلام على يسار الداخل إلى المسجد الحرام عمرت في حدود الثمانين وثمانماية » .

خاتمـــة : اتسم حكم المماليك الجراكسة بعدم الاستقرار ، فلقد دامت دولتهم ١٣٤ سنة تسلطن خلالها ٢٣ سلطانا ، من بينهم ٩ فقط حكموا ١٠٣ سنة بينما حكم ١٤ سلطانا تسع سنوات ، مما يدل على عدم الاستقرار السياسي ، فكانت مهارة أي سلطان لا تقاس بكفاءته وعدله بقدر ما تقاس بقدرته على القضاء على منافسيه .

وعلى الرغم من الصورة القاتمة للاحوال السياسية والاقتصادية والإجتماعية زمن المماليك الجراكسة إلا أن بعض هؤلاء السلاطين عرفوا بحبهم للعلم والأدب ، وبعضهم عرف بالورع والتقوى ، فشيدوا المؤسسات الخيرية دينية ومدنية تقربا إلى الله وتكفيرا عن ذنوبهم السياسية ، فكان المملوك يسعى لقتل منافسيه في مصر أو الشام وأمراؤه يشيدون له المنشات الدينية . وكان نصيب الحرمين الشريفين من تلك المنشات كثيرا على ايدي معظم المماليك الجراكسة ، فقد كانت بلاد الحجاز تابعة لسلطانهم .

وكما تقدم كانت مؤسساتهم تقربا إلى الله وتسهيلاً للحج وتكفيرا عما يقترفون من ذنوب وسيئات ، فعمروا المساجد واصلحوا ما تهدم منها واقاموا الاربطة والمدارس وغيرها .

ولقد حظي السلطان قايتباي دون غيره من مماليك الجركس بشرف تعدد مآثره الدينية العمرانية في الحرمين الشريفين كما اشرت أو ل البحث ، .

والاسلام بلا شك دين العلم والمعرفة ، فكانت أول آيات القرآن تَحُضُّ على التعلم [2] .

---

(١) « الجامع اللطيف » ص ٢٠٤ .
(٢) سورة العلق ، الآيات ١ : ٥ .

وقال عز من قائل : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) ، وقال تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون[1]) ، كما اوصى الرسول عليه الصلاة والسلام بتحصيل العلوم في أحاديث ثابته عديدة .

وشهدت الدولة الاسلامية مجالس العلم مع نشأة المساجد ، وعلى ايدي السلاجقة نشأت في العالم الاسلامي مدارس مستقلة العمارة للتعليم أخذت في الزيادة وتطور البناء حتى اشتملت على أربعة أواوين متعامدة فيما بعد وفق المذاهب الأربعة ولم تقتصر الدراسة فيها على علوم الدين بل اشتملت على علوم الطب والفلك والفلسفة وغيرها .

وشهد الحرم المكي الشريف العديد من المدارس المستقلة بعدما كانت تعقد حلقات الدراسة في الرحبات المحيطة بالكعبة . ثم ظهرت المدارس في ابنية مستقلة كالمدرسة الارغونية[2] بباب العجلة ، والتي شيدها الامير ارغون الداودار أحد مماليك المنصور قلاوون . . والمدارس اليمانية الثلاث التي أسسها حكام بني رسول في اليمن منها المدرسة المنصورية للسلطان الملك المنصور عمر بن رسول بجوار باب العمرة بين مدرستي طاب الزمان ؟! والزنجيلية . والثانية المدرسة المجاهدية للسلطان علي ابن داود . والثالثة لابنه الافضل وسميت بالمدرسة الافضلية شرق الحرم فيما يواجه الكعبة المعظمة واقتصرت على أيوان واحد للشافعية وانتظمت بها الدراسة ٧٧٠هـ بخلاف المدرسة الباسطية وغيرها من عشرات المدارس التي شيدت على مشارف أبواب الحرم المكي الشريف أو بالقرب منه ومنها مدرسة السلطان قايتباي موضع هذه الدراسة والبحث .

اسماعيل أحمد اسماعيل

---

(١) سورة الزمر : اية ٩ .

(٢) الفاسي – شفاء الغرام باخبار البلد الحرام ج١ ص ٣٧٨ .